

## نجوى

بقلم د. محمد حسان الطيبان

### قالوا تحبُّ الشامَ قلتُ جوانحي مقصوصةٌ فيها و قلتُ فؤادي

كلما تناءت بي السنون، و تجافت بي المسافات، ازداد شوقي وحنيني إليك يا شام

الحب.. ويا خدينة القلب.

أشتاق فيك طفولتي

أشتاق فيك براءتي

أشتاق فيك شقاوتي

أشتاق فيك سعادتني

وأحن فيك إلى إنسانيتي وهويتي وعافيتي...

كل ما فيك يشجيني .. ينهض بي ويحييني .. بل يدعوني .. يغريني ..

هواؤك الساحر .. و جوك العامر، نهارك الصاخب .. وليلك الساهر، صيفك

اللاهب وشتاؤك القارس، ربيعك الفتان .. وخريفك الوهان ، مساجدك العامرة .. وماذنك

الشامخة .. أصيحاب القلب .. وشقائق الروح، مجالس الأانس .. وحلقات العلم، أيامي

وأحلامي، ذكرياتي ومرابع هواي في طفولتي وفتوتي وشبابي وهرمي... بسماطي وضحكاتي،

أهاتي وواهاتي

آهاً لا يأمنا بالحيف لو بقيتَ عشراً وواهاً عليها كيف لم تدُم

أحن إلى شقاوة أترابي، وعيش أحبابي. إلى جلسة تضميني مع صحب طالما أحببتهم

وأحبّوني، وألفتهم و ألفوني. معهم أخلع عن عاتقي وقار الحشمة وتصنع الحياء، أنطلق على

سجيتي .. فتارة أغرد وتارة أغني، وتارة أحدث وتارة أصغي، أتقلب بين نعمة المحبة والإلفة،

لا أحتشم ولا ألتزم .. بل أطلق العنان لنفسي، أسمعهم و يسمعوني .. أحملهم و يحملوني،

أسعى بهم ويسعون بي .

تذكّرت المنازلَ والحبّيبا

أبت يا شامُ نفسي أن تطيبا

فأصبحَ من تذكركم كئيبا

ألا يا شامُ قد عدّبت قلبي

## وَرَقَّقَنِي هَوَاكِ وَكُنْتُ جَلْدًا وَأَبْدَى فِي مَفَارِقِي الْمَشِيئَا

أتدريين أيتها العشيقة المستبدة بحبي، المتسلطة أبداً على قلبي ولبي.. أتدريين أن استبدادك هذا أحبُّ إلي من كنوز الدنيا، وأن تسلطك وسلطانك وطغيانك أشهى على قلبي من كل نعيم ذقته في عوالم الناس.

وكثيراً ما أفكر في هؤلاء الذين كُتِبَ عليهم أن يهجروك إلى غير رجعة، أو كتبوا على أنفسهم ألا يعتادوك بالزيارة، على أي أمل يعيشون؟ وفي أي بلاء يتقلبون؟ وأعود إلى نفسي أسألها ذاك السؤال الأزلي: يا شام ماذا وجد من فقدك؟ وماذا فقد من وجدك؟

أتدريين أن ذكراك هي التي تصبريني.. وأن طيفك هو الذي يُحييني و يُحييني.

أتدريين أني أصحو وأنام على هذا الطيف.. أعد الأيام والساعات بانتظار هذا اللقاء.. أقلب أيام دهري مترقباً ساعة العودة. وكأني بهذه العودة قد غدت أملاً بل هدفاً وغايةً لوجودي. وكثيراً ما تأرق مني العين، ويهرب مني النوم، وأتقلب على مثل جمر الغضا، فلا أجد سلوتي إلا بترديد قول الزركلي:

العين بعد فراقها الوطناً لا ساكناً ألفت ولا سكوناً

ريانةً بالدمع أقلقها ألا تحس كرى ولا وسناً

كم ذا أغالبه ويغلبني دمعٌ إذا كفكفته هتنا

وكأني بهذه الغربة المتطاوله ليل جاثم على صدري وقلبي، طال فيه قلبي وسهادي، وحر فيه فكري ووجودي، وضاقته به نفسي، وعافت طولَه روعي، يلوح من ورائه فجرٌ شامي.. وصباح أيامي.. وسعادة عمري.. ونعيم دهري.. فيك أنت يا شام.

آه يا شام كيف أشرح ما بي و أنا فيك دائماً مسكون

أي وربي مسكون بحاراتك.. بأزقتك وعماراتك.. وشوارحك ومساراتك.. بقاسيونك وبرداك وربوتك.. بمآذنك وقبابك ومساجدك.. بالأموي والسادات والتوبة والعدل والأبرار، بأطيارك وعواصفها.. وأزهارك وطبيها.. وبالبلك وتغريدها، بحنفياتك تسيل بالماء القراح، وأطاييك وفيها كل ما يشتهي ويستباح، بفواكهك تتخير منها ما لذ وطاب، بحلوياتك تلذُّ لآكلها وتستطاب، بالمدلوقة تعلوها القشطة والفتق، والستاتي والعصافيري.. وبقية أسراب الحمام والطيور.

برياض الجنة نرتع فيها بين المحاريب والمنابر.. وبين حلق العلم وحلق الذكر, بصوت  
مؤذن عذب يصدح بالأذان, وصوت منشد رخيم يصلي على النبي العدنان, وصوت خطيب  
مجلجل يهز منا القلب قبل الأذان , وصوت إمام خشوع يرقى بنا إلى سدرة الكريم الديان.

مسكون بأسواقك... بجوانيتك وشبابيك شرفاتك..

بالخُصِّ يخفي خلفه أحلى الحِسانِ

بالفجر بدّد نوره جلك الظلام

بأريج عطر الياسمين وبالحمام

وصرير بابٍ دونه أحنى الأنام

بسريرة أرجو لها مسك الحتام

مسكون بأسمائك.. بأرضك ونجومك وسمائك.. برضوان وهشام وحسام وتوفيق  
وتحسين وياسين.. واعتدال وعائشة وغادة وسهام وفائزة وحسنا ودعاء.. بالطيان والمسوتي  
والعطار والشريف والبواب والصمادي والحكواتي والفرفور والشلاح.. وبقية الحرف الشريفه  
والألقاب المنيفة.

مسكون ببيت أهلي وبيت جدي.. وبيت صحي.. وبيت جيّ.. بل أنا مسكون

بكل بيت فيك..

بروائح النارج تعبق في البيوتات العتيقة

وأزاهر الرمان تبدو كالجُمان أوالعقيقة

ووجوه أرحام وأصحاب وجيران صديقة

أجل أنا مسكون بمعاهدك ومدارسك.. وجوامعك وجامعاتك..

بدهشة طالب نهم يهيم بذكر معلومة

وبارقةٍ لآخرٍ قد أثار الدرسُ مخزونه

ونبرة حازمٍ دَرِبٍ يقود الصف بعيونه

مسكون بدفئك وبردك.. بظلك وشمسك.. بصحوك ومطرك.. بزهرك ووردك.. بسهلك

وجبلك.. بنهرك وجدولك.. بناسك وأعراسك.

مسكون بكل ما فيك من عذب وعذاب.. وعمار وخراب.. وسعادة وشقاء.. وراحة  
وتعب.. ونعيم ونَصَب.

مسكون بدمعة حَرَّى أذرفها حزنا أو فرحا..

مسكون بزفرة مرّة أطلقها أسيّ أو حسرة..

مسكون بلوعة عاشق لا تعرف سكونا أو فترة..

مسكون بجناح طيرٍ خافقٍ يرفُّ كلما عنّت له أثارةٌ من ذكرى.

قَلْبٌ تَقَطَّعَ فَاسْتَحَالَ نَجِيْعَا      فَجَرَى فَصَارَ مَعَ الدُّمُوعِ دُمُوعَا

